سورة الكهف

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٣-١٤]

أصحاب الكهف أي أصحاب المغارة. ومع أنه قيل إنهم من أتباع النبي عيسى عليه السلام وأتباع الإنجيل، أو أتباع نبي آخر. إلا أننا نستطيع القول -انطلاقا مما جاء في القرآن الكريم- بأن أصحاب الكهف جماعة تمثل رمز البعث والإحياء حتى يوم القيامة. لأن جميع حركات البعث والإحياء مرت بفترات الضيق وفترات العيش في المغارات أو تحت الأرض، وسيتكرر هذا في المستقبل أيضا.

وإذا أتينا إلى عددهم، فالقرآن ينفي أنهم كانوا ثلاثة، أما الادّعاء بأنهم كانوا خمسة فيصفه بأنه رجم بالغيب، ويسكت عن كونهم سبعة ثامنهم كلبهم. أي يدع الباب مفتوحا للعدد سبعة. ويحمل علماء التفسير هذه القناعة استنادا إلى أسلوب التعبير القرآني هنا. وهنا توجد نكتة لطيفة، فالقرآن الكريم بعدما يذكر أن عدد أصحاب الكهف كان سبعة يستعمل واو العطف فيقول ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (الكهف: ٢٢) مشيرا إلى أن الإنسان والكلب لا يجمعان معا. إذن فلو دخل هذا الكلب الجنة مع أصحاب

الكهف -كما ورد في روايـــة- فالناس يدخلون بوصفهم أناساً والكلب بوصفه كلبا.

والآن لنرجع إلى البداية ولنطالع معا هذه الآية مرة أخرى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

إنـــهم فتية شجعان... شجعان بأفئدتـــهم... شجعان بأفكارهم... شجعان بضمائرهم... شـــجعان بسلوكهم وتصرفاتـــهم... إنـــهم فتية أقوياء الإيمان إلى درجة قيامهم بشق عصا الطاعة ضد الباطل. ومع أنـــهم كانوا فئة صغيرة فلم يترددوا في بدء هذه الحركة النابعة من اهتدائهم وإيمانـــهم بربـــهم الذي زادهم هدى من عنده على هداهم الذي كسبوه بجهدهم... زادهم هدى اعمق برحمته الواسعة الشاملة وجعل منهم عصبة من الفتية المؤمنة حق الإيمان. ونعلم حسب آية ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِـــهِمْ﴾ أن التأييد الرباني لإيمانـــهم وتقوية ربهم لهذا الإيمان وترسيخه في قلوبهم كان بنسبة إيمانهم السابق وبنسبة نيتهم الصالحة. بل إن تلقيهم مساعدة ومعونة واضحة وصريحة من الله تعالى وارد أحيانا، وهذا وسيلة مهمة للاطمئنان القلبي، لأنه يعني الارتباط مع الله تعالى. وهناك حديث نبوي شريف يشير إلى حال نوع من إيمان الفرد يكون ذكر الله تعالى عنده في كل آن... يذكره أبدا... يحس به على الدوام بقلبه، ويراه على الدوام بروحه، ويشعر بقوته وقدرته، ويبحث عن رضاه على الدوام.... ففي أحد الأحاديث يورد رسول الله ﷺ حالات خاصة كالتوضؤ في شروط صعبة، والذهاب إلى مساجد بعيدة بحيث يكثر عدد خطواته، وانتظار الصلاة بعد الصلاة في المسجد ويختم الحديث بقوله ﷺ: "فذلكم الرباط... فذلكم الرباط... فذلكم الرباط".[1] والرباط هو المرابطة في الثغور. إذن فمعنى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى

(١) مسلم، الطهارة ٤٤؛ النسائي، الطهارة ١٠٦؛ الترمذي، الطهارة ٣٩؛ الموطأ للإمام مالك، السفر ٥٥.

قُلُوبِهِمْ﴾ هو أننا أيدنا قلوبهم بالرباط الإلهي. ومن الطبيعي أن من وصل إلى مثل هذا الرباط وهذا الاطمئنان يكون متبعا للحق شجاعا غير وجل.

مثل هؤلاء الناس المجهزين بمثل هذا الإيمان ﴿إِذْ قَامُوا﴾ قاموا ليرفعوا صوت الحق ضد موات القلب وضد الانحراف عن المنطق. وقد وَجَدَ سارتر وكامو وماركوس مكاناً لهم في الأدب العالمي بأدب التمرد المعبّر عن الفلسفة الوجودية التي اعتنقوها. تمردوا على جميع عادات وأعراف المجتمع وجميع القيم الدينية والأسرية واصفين إياها بالعبث. ولكن تمرد أصحاب الكهف لم يكن من هذا النمط. لقد تمردوا ولكن بعد أن عيّنوا البديل ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. أي لم يكن تمردهم عملية هدم وقطع للجذور كما فعل الوجوديون. بل عملية إنشاء وتعمير وعملية ربط مع رب السماوات والأرض الذي خلق كل شيء في السماوات والأرض وقدره فاحسن تقديره. أي كانوا رواد حملة تجديدية بديلة. ومن ثم ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾. إذن:

١- لا نستطيع النظر إلى انفصالهم عن مجتمعهم ولجوئهم إلى الكهف كأنه عملية هروب. أجل... إن ابتعادهم وانفصالهم عن مجتمعهم لم يكن كابتعاد وانفصال الجبناء. بل يحتمل أن هجرتهم من مدينتهم كانت مثل هجرة عمر بن الخطاب ﷺ عندما ذهب إلى الكعبة قبيل هجرته وقال للقوم: «من أراد أن يرمل امرأته وييتم أولاده فليتبعني».[(١)]

أجل لقد كان فرارا، ولكنه فرار من النوع الذي ذكره القرآن الكريم ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ (الذاريات: ٥٠)؛ أيْ فرار إلى الله ولجوء إليه.

٢- إن مثل هذا التمرد الذي أعقبه الابتعاد كان وسيلة لانعكاس جديد لأفكارهم ومبادئهم على مجتمعهم ضمن تفاسير مختلفة لاختلاف عامل

---

(١) إنسان العيون للحلَبي، ٢/١٨٣-١٨٤.

الزمن. لقد أدت صيحتهم الشجاعة هذه إلى هز عقول الكثيرين في مجتمعهم وإلى تليين قلوب العديدين منهم. لقد تنوقلت أفكارهم ومبادؤهم وأنباء سلوكهم الشجاع من لسان إلى لسان ومن قلب إلى قلب حتى أحاطت بالمجتمع كله مثل بذور بذرت في التربة ثم نمت وترعرعت وأصبحت سنابل نضرة.

٣– يروى أن أصحاب الكهف كانوا أناسا من منتسبي قصر الملك و لم يكن قيام أي إنسان منتسب إلى القصر بترك حياة السعادة والرفاهية والترف الذي يعيش فيه لينخرط في طريق مخالف للملك ولكل المجتمع... لم يكن مثل هذا التصرف شيئاً مشاهداً أو مألوفاً آنذاك. ولا شك أن هذا التصرف من أصحاب الكهف قد لفت إليهم الأنظار، وكان لقيامهم بتصرف غير مسبوق من قبل من أجل دين معين وفكر معين وتقبلهم بكل رحابة صدر تضحيات ما كانت تدور بخلد أحد منهم مما أحدثَ هزةً عنيفة في ذلك المجتمع، فحول الأنظار والانتباه إلى دعوتهم وإلى رسالتهم.

٤– إن كان أصحاب الكهف قد قرروا الالتجاء إلى الكهف والبقاء فيه حتى يموت الملك ويزول ظلم الدولة وإرهابها ليرجعوا بعد ذلك إلى الناس من جديد والدعوة إلى دينهم الحق فإن مدة بقائهم في الكهف (أي مدة ٣٠٩ سنوات "ثلاثمائة سنينَ وازدادوا تسعاً") بمثابة عبادة لهم ينالون ثوابها بسبب نيتهم الصالحة وعمق هذه النية، لذا يعدون فائزين على أي حال من الأحوال. لأن الشخص المتعب الذي ينام على نية القيام لأداء صلاة العشاء بشكل أفضل وفي حالة راحة فإن نومه يعد له عبادة. لذا يجب النظر إلى قيام أصحاب الكهف بالاختفاء بأن نيتهم كانت الرجوع مرة أخرى إلى نشر دعوتهم بعد انكسار حدة الكفر. فلو كنت متعودا على الحياة المرفهة للقصر والنوم على الفرش الوثيرة الناعمة وتركت تلك الحياة وفضلت عليها النوم على الصخور الصلدة، وفضلت صحبة كلب على صحبة أناس عديدين

رجالا ونساء يقفون لك تحية وتبجيلا... إن كنت هكذا أليس من الطبيعي أن تنتظر مثل هذا الثواب؟... بلى.... لذا فمن الطبيعي أن يهبهم الله تعالى جزاء مكافئ عمق نيتهم الصالحة.

٥- والحقيقة أن الكهف هو مكان لإتمام عملية الشحن، وموضع لاكتشاف الإنسان لنفسه... لِم؟ ذلك لأن النضال ضد الكفر (ولا سيما في الأوقات التي لا يوجد هناك أي توازن بين قوة الكفر وقوة الإيمان) وهزه ثم الانتصار عليه لا يتم إلا بعزم يقارب عزم الأنبياء.

تأمل حياة الرسول ﷺ: ألم يقض مدة ستة اشهر في تأمل وتحنث في مغارة لأجل استكمال الاستعداد اللازم لتلقي الوحي؟ ونجد أن من جاء من بعده ﷺ ممن ساروا على نهجه لا بد وأن في حياتهم فترة غار أو كهف. أجل هناك فترة غار في حياة الإمام الغزالي والإمام السرهندي ومولانا خالد والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.... فترة شحن، وفترة رجوع إلى النفس... فترة انـــزواء لتجميع الطاقة والقوة لمواجهة الإلحاد والكفاح ضده أما مقدار هذه الفترة فقد كان ستة اشهر عند رسولنا ﷺ وخمس سنوات أو عشر سنوات عند الأولياء والأصفياء بل كان منهم من عاش حياة انـــزواء مدة ستين سنة.

والحقيقة أن الشيء نفسه وارد بالنسبة للجماعات التي تقوم بحركات التجديد وبإعادة الإنسانية إلى رشدها وإلى خط سيرها الصحيح في الحقب التاريخية المختلفة.

أجل نحن نشاهد فترة الانـــزواء الكهفي عند جميع من مثلوا روح الفتوة هذه... إن الإنسان لكي يكون مظهرا لبعض النعم الإلهية، والإلهامات السماوية فلا بد له من فترة كهفية.

وبعد هذا الذي عرضناه آنفاً في هذه المسألة لم يعد من الصواب إثارة تساؤلات أو الدخول في متاهات لم يشر إليها الكتاب أو السنة في هذه

المسالة مثل تعيين موقع معين للكهف، أو تعيين أسماء الحكام الظالمين الذين ظلموا أصحاب الكهف وقومهم إنّ مثل هذا يُعَّد رجما بالغيب وفتات معلومات لا تكسب الروح والإيمان أي معرفة روحانية أو قلبية أو شوقية.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّئْ لَنا مِن أمرِنا رشَدا. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أبداً.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]

كان أصحاب الكهف فتية أبطالا وضعوا أرواحهم في أكفهم من أجل تبليغ دينهم. وعندما يتناول القرآن الكريم موضوعهم بأسلوبه الخاص المتميز يعطي إشارات وإيماءات مختلفة لأصحاب الدعوات حتى يوم القيامة. أجل.... على الدعاة والمرشدين أن يُشحنوا في البداية شحنات روحية مثل أصحاب الكهف، وأن يمروا بمثل هذه المرحلة. وكما يمكن أن يتم هذا بقضاء فترة في الكهوف والمغارات، كذلك يمكن أن يتم على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، الذين مروا بفترة شحن وشحذ لقواهم الروحية في دار الأرقم. طبعا ليس من الشرط وجود تشابه حرفي في هذا الموضوع، لأن الحوادث التاريخية تجري في أنماط متشابهة ضمن إطار عام. لذا فالأشياء المهمة بالنسبة إليهم بمقياس كبير مهمة بالنسبة إلينا كذلك.. بعد الفهم الجيد للدعوة المراد نشرها وتبليغها وهضمها والقيام بـــهذه الدعوة بكل تجرد وإخلاص.. بعد قضاء فترة اعتكاف وخلوة وتوجه إلى الله للوصول إلى المستوى الروحي المطلوب الذي يحقق لهم قدرة التمثل والتشرب بالدعوة وقدرة على تمثيلها.

وإذا أتينا إلى الآية نرى أن كلبهم قابع في مدخل الكهف يقوم بوظيفة حراستهم وحفظهم من الأخطار، ولكنه ليس واحدا منهم، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الفرق الطبيعي بأسلوبه المتميز فيقول ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُم كَلْبُهُمْ﴾ (الكهف: ٢٢) أي عندما يذكر عددهم ومجموعهم يذكر الكلب على حدة. وعلاوة على هذا فانه عندما يتم إيضاح حال الكلب ووضعه وهو واقف للحراسة وقفة مهيبة تنخلع لها قلوب الآخرين، إلى درجة أنه لو

اطّلع على حالهم أحد عن بعد لولى منهم فرارا من الرعب. وهذه لمسات من التصوير المعبر جدا.

١– والآن لنحاول إلقاء نظرة سريعة على النكت التي تلهمها هذه الآية الكريمة: سيكون هناك في كل عهد صناديد من أمثال أصحاب الكهف، وسيكون هناك من يلتحق بهم، وسيستمرون في السير معا ضمن إطار عام من الفكر والشعور وإن لم يكونوا على الخط نفسه في جميع التفاصيل.

٢– يوجد على الدوام في كل عهد من يعيش حياة الكهف هذه، أو يجبرون على مثل هذا العيش. لذا عليهم إلا يهملوا حراسة أنفسهم، لأن من المحتمل –بعد مرحلة معينة– بدء الهجوم عليهم وعلى بيوتهم وعلى مؤسساتهم. لذا عليهم أن يتخذوا التدابير اللازمة، بل وضع الكلاب المدربة أمام بيوتهم.

٣– يجب ألاّ تكون مثل هذه الكلاب كلابا عادية بل من النوع الذي يستطيع مجابـــهة جميع الأخطار الآتية من الخارج ومواجهتها، وأن يكون وضعهم ومنظرهم كافيا لإلقاء الرعب في النفوس الشريرة.

إن الإنسان إنسان بمقياس تبنيه للقيم الإنسانية. وعندما يفقد هذه القيم يكون ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وهذ الموضوع وارد في آيات عديدة تعطي إيضاحا أكثر.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾

[الكهف: ١٩]

كنا قد شرحنا بطولة أصحاب الكهف عندما تناولنا شرح الآية الرابعة عشر من هذه السورة. أما هنا فسنتناول بطولتهم الثانية. وتتلخص في أن أحدهم عندما نـــزل للتسوق من سوق المدينة جلب إليه الأنظار سواء بزيه أو بنوع دراهمه فقام أهل المدينة -وفي رواية قام الوالي- بتعقبه حتى عثروا على أصحاب الكهف في كهفهم. كان هذا مدعاة لزيادة إيمان الآلاف ومئات الآلاف من الذين تناقلوا روايتهم أبا عن جد أو قرأوها في الكتب، فانقلب هذا الإيمان من علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين، أو إلى ما بعده، وهزت هذه الحادثة ذلك المجتمع هزا عنيفا، وبدأ الناس يتسابقون نحو الدين. وهكذا كان القدر الإلهي يهيئ لهؤلاء الأبطال مهمة ثانية في الدعوة. وبينما كانوا يتركون هذه الحياة الدنيا كانوا قد رفعوا الآلاف من الناس إلى أفق دعوتهم وفكرهم.

والشيء الثاني الذي يجلب النظر في هذه الآية الكريمة هو المال والنقود. فمهما كانت النتيجة فإن النقود -أي مال الدنيا وزينتها- هي التي كشفت عنهم وعن مكانهم. لأن أهل المدينة عرفوا (يمليخا) -إن كان هو المشتري- من نقوده. أما كون النتيجة إيجابية فلطف الهي. ولكن النقود هي التي دلت عليهم. إذن فرجل الفكر والدعوة إن كان لا يرغب في التعرض للقبض عليه

من قبل الأعداء أو من قبل الأصدقاء أو من قبل مجتمعه فيجب عليه ألا يبتعد عن حب الربح والكسب فقط، بل عن أي ضعف دنيوي في هذا المجال. فكم شهد الماضي من رجال ومن سلاطين كبار اصبحوا أسرى للمال الغدار. وكم من مرة أُستُغِلَّ هذا الضعف الموجود في فطرة الإنسان فمحيت مجتمعات وذلت أمم. ولكن مع هذا فإن انتشار الدين في العالم معتمد الآن على النقود، أي على الرأسمال أيضا وعلى قوة تمويل المشاريع الدعوية. ويرجى ملاحظة أن أصحاب الكهف عندما خرجوا إلى الخارج ببضعة دراهم حدث انفجار ديني ثان في ذلك المجتمع لذا فهذا جانب مهم في هذا الموضوع، أي يجب ألاّ يهمل موضوع التمويل المادي، ولكن بشرط أن تكون النصوص الإسلامية من آيات وأحاديث وتصرفات الرسول ﷺ قدوة ونبراسا لنا. أجل يجب أن يكسب المسلم ويكون غنيا، لكن على شرط ألا يستولي حب المال على قلبه. بل يضع ذلك المال في مكان "حرز" بتعبير الفقهاء بعيد عن يد اللصوص ثم يصرفه في وجوه منافع الأمة. فلولا هذا التمويل هل كان يمكن تحقيق هذه المشاريع الكبيرة؟... إذن فالقوة المادية كان لها دور كبير في نشر الدين الإسلامي المبين. لذا فمن هذه الزاوية فكل جهد يبذل في سبيل الحصول على المال يعد عبادة... يعد عبادة إن تم صرف هذا المال الذي جمع بكل مشقة مادية أو فكرية، في سبيل الدعوة السامية وليس في سبيل الأهواء والشهوات.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]

إذا كان السبيل المراد للهداية إليه هو سريان الدين ونفوذه إلى قلب الإنسان وروحه وقبول وجدان الإنسان له بكل معطياته.. إذا كان هذا هو السبيل المشار إليه فقد تحقق هذا في اليهودية والمسيحية والإسلام في عهود مختلفة، فمثلا وصل اليهود خلال سنوات التيه أي خلال أربعين سنة إلى هذا المستوى الروحي. أما المسيحية التي لاقت الاضطهاد طوال عصور ثلاثة فقد قُبلت كذلك وانتشرت. أما إن جئنا إلى الإسلام فنحن نرى أنه تُقُبِّل قبولاً حسناً في مدة أقل هي مدة ثلاث وعشرين سنة، أي كان -كما جاء في الآية- أقرب من هذا رشدا. ولعل هذه الآية تشير إلى هذا من باب الإخبار الغيبيّ. أما الأمر الوارد في هذه الآية ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فهو لتنبيه الذين ينسون ذكر "إن شاء الله"، أو الذين ينسون التأمل في آيات الله ويغفلون عن ذكره ويذكرهم بآية ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ليعودوا إليه ويرجعوا عن غفلتهم ويستيقظوا منها، ويلتجئوا اليه، ويقول له بأن كفارة النسيان والغفلة هي ذكر الله تعالى.

وهكذا وبمثل هذا الذكر لله والوصول إلى المستوى الرفيع لأصحاب الكهف المشحونين بذكر الله يظهر -بلطف من الله تعالى- اقصر طريق للوصول إلى وجدان المجتمع، ويدخل النجاح ضمن دائرة الصلاح. وهذا ما تشير إليه خاتمة هذه الآية.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]

كان مشركو قريش قد طلبوا من الرسول ﷺ أن يطرد الفقراء من أصحابه عن مجلسه وأن يجعل لهم ميزة وأولوية في الحضور. وكان من الممكن إن أخذنا خصائص البنية الاجتماعية آنذاك بنظر الاعتبار التفكير بأن تحقيق هذا الطلب سيؤدي إلى هداية هؤلاء وإلى إسلام العديدين اتِّباعاً لهم. ولكن الوحي السماوي نـــزل على الرسول ﷺ (الذي لم يكن وصل إلى قرار في هذا الموضوع) ليعاونه ويساعده في اتخاذ القرار الصحيح، وليؤكد مرة أخرى بأن استحصال رضا الله تعالى هو الأساس، وأن الكثرة والكمية لا أهمية لها، وأن الذين ساقوا الشروط له لحضور مجلسه غافلون ولا يبتغون سوى الدنيا وأهوائها. ونحن نعلم أن الإسلام يستطيع أن يقف على قدميه دون أن يستند إلى عكّازة أي نظام أو شخص، ولن يكسب شهرة أو مجدا باتباعه هذا الشخص الغني أو ذاك أو هذه الطبقة الأرستقراطية أو تلك. انه يكتفي بالديناميكية الذاتية التي يملكها، لقد وجد بها وسيوجد دائما بها، لأنه يأخذ قوته التي لا تقهر من الله تعالى. لذا كان من استمسك به عزيزا، ومن هجره ذليلا. وفي التاريخ الإسلامي شواهد عديدة على هذا.

كانت قريش هي صاحبة هذا الطلب بدافع الغرور والكبرياء والأنانية والظلم. أما أصحاب الرسول ﷺ الذين كان من المفروض أن يستبعدوا عن مجلسه ويحرموا منه فهم صهيب وبلال وعمّار وياسر رضوان الله عليهم وكانوا من فقراء المسلمين. وكانت قريش تذكر بأنـــها لن تحضر مجلس

الرسول ﷺ إلا إذا طرد هؤلاء من مجلسه وحرم عليهم حضوره... ما أسخفه من شرط، وما أسخفه من طلب!!

النظر بازدراء إلى المسلمين الفقراء يمتد ويرجع حتى إلى عهد النبي نوح عليه السلام فقد وصفوا بأنـــهم "أراذل" وطلبوا من النبي نوح عليه السلام إبعادهم عنه، ولكنه أجابهم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٤). لذا فلم يكن من المتوقع أن يقوم فخر الكائنات محمد ﷺ بتصرف مخالف، بل قال معبراً عن حبه لهم: "المحيا محياكم والممات مماتكم". قال هذا حتى التحاقه بالرفيق الأعلى.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]

استند بعضهم إلى عبارة "ذريته" فقالوا إن للشيطان زوجة وأولاداً. لذا أرى من المفيد ذكر موضوعين صغيرين:

١– حتى لو كان للشيطان زوجة وأولاد فهذا متعلق بعالم آخر مختلف تمام الاختلاف عن عالمنا. فكما نرى أنفسنا في المنام ونحن نأكل أو نشرب أو نمرض أو نتزوج، ويحصل هذا في عالم المنام والأحلام وهو عالم آخر. لذا يجب فهم ذرية الشيطان على ضوء هذا المنطق. ألا يذكر الرسول ﷺ بأن العظام رزق الجن؟ حين يقول: "لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن"[1] هذا مثال على وجود عالم آخر ذي أبعاد مختلفة عن عالمنا.

٢– ليس من الضروري حمل كلمة "الذرية" على معناها الحقيقي والحرفي. فكما يمكن أن يكون معناها الذرية حسب معناها الذي نعرفه، كذلك يمكن أن تأتي بمعنى نسل وذرية الإنس. وهناك أحاديث نبوية وحقائق اجتماعية وتاريخية تسند هذا المعنى. فمثلاً عندما يقوم الرسول ﷺ بتوجيه الأزواج إلى دعاء معين في أثناء الجماع، يقول بأن الطفل المولود منه سيكون في حرز من الشيطان. ومن المحتمل أن المسلمين في عهد من العهود عندما كانوا يقرأون هذا الدعاء جاء نسل طاهر خدم الإسلام والمسلمين والقرآن. ثم عندما غفلوا عنه أو عندما ابتعدوا عن الإسلام وعن الحياة الإسلامية نشأ جيل شيطاني، أو بالتعبير الشعبي الشائع نشأ جيل يستطيع خداع الشيطان نفسه.

---

(١) مسلم، الصلاة ١٥٠؛ الترمذي، الطهارة ١٤.

لذا نرى حمل عبارة "ذرية الشيطان" على المعنى المجازي لأنه من الممكن أن نفهم هذا المعنى على أساس أن الإنسان مع كونه إنساناً إلا أنه يستطيع أن يفكر تفكير الشيطان ويتصرف تصرف الشيطان، والقرآن الكريم يشير إلى هؤلاء بأنـــهم ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (الإسراء: ٢٧) .

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥]

أعطيت لذي القرنين القوة الممكّنة المنفّذة وكذلك القوة الميسّرة. فقد وهبت له القوة التي تمكنه من تجاوز جميع العقبات والقوى التي تظهر أمامه بكل سهولة.

ونفهم من الآيات التي تتحدث عنه انه كان يمثل الإسلام أمام التوازن العالمي، وانه كان يتوجه بجيشه إلى المناطق التي تسود فيها الاضطرابات والقلاقل والفساد، وانه كان يضع السدود أمام الفساد في تلك المناطق القلقة ويؤمن التوازن والسلام. أي كان ممن ورث الأرض، وكان عنصر توازن بين الدول. لذا جهّزه الله تعالى بكل الأدوات والأسباب التي تمكنه من أداء هذه المهمة وآية ﴿وآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيٍّ سَبَباً﴾ (الكهف: ٨٤) تؤيد هذا المعنى.

وقد أدرك ذو القرنين حكمة إعطائه هذه القدرة وهذه الإمكانية الكبيرة فاستعملها حتى مداها الأخير في تحقيق الرضا الإلهي وفي سبيل تحقيق التوازن في الأرض فكان رجل فكر ومبدأ استعمل ما سخر له في هذا السبيل.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ ﴾ [الكهف: ٩٠]

عندما توجه ذو القرنين ﷺ من الغرب إلى الشرق وصل إلى أفريقيا كما هو ظاهر من وصف القوم الذين رآهم هناك، فهؤلاء لم يكونوا يملكون مساكن ولا يعرفون ستر أجسادهم ويتجولون عرايا، أي كانوا بعيدين عن جميع مظاهر المدنية.

ويمكن استنباط المعاني الآتية أيضاً من هذه الآيات وهي أن ذا القرنين عند سياحته نحو الشرق وصل إلى موضع لا يوجد فيه أي حائل أمام أشعة الشمس من تل أو جبل أو شجر، أي كانوا يجابهون الشمس وحرارتها منذ طلوعها حتى غروبها... أو لم يكونوا يملكون الملابس التي تقيهم أشعة الشمس وحرارتها. ولا تزال هناك أقوام في خط الاستواء أو في الأماكن الحارة من الصحارى يتجولون شبه عرايا أو عرايا. أي لم يكونوا يملكون لا سترا طبيعيا، ولا مساكن وأبنية ولا ملابس كافية بالمعنى المعروف، بل كانوا أقواما بدائيين.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤]

قد يكون هذا السد سد الصين أو سد "دَمير قَابِي" في قفقاسيا أو سداً في مكان آخر. ولكن بعد ورود تعريف هذا السد في الآيات القادمة يصبح من الصعب الكلام عن سد معين. وحتى لو كان موجودا فإن تعيين مكانه يحتاج إلى بحث دقيق. لذا يجب توجيه الأنظار إلى القوم الموجودين وراء السد اكثر من توجيه الاهتمام إلى السد نفسه. فالظاهر أن هؤلاء القوم سيبقون في خير وعافية ما داموا متعلقين بقيمهم المعنوية ويستطيعون منع مفاسد يأجوج ومأجوج وفتنهم في الأقل يستطيعون تحييد تلك الأضرار.

ونحن نرى بأن علينا البحث عن أحكام كلية في قصة ذي القرنين. مثل شروط بقاء الدولة ودوامها وشروط رئيس الدولة... الخ، وبعكس هذا فإننا نكون قد قمنا فقط برواية حادثة من ثنايا تاريخ بعيد، وهذا يعني أننا نستطيع الاستفادة من القرآن استفادة كبيرة، أو أن هذه الاستفادة ستكون ضئيلة جداً.

وشيء آخر نود الإشارة إليه وهو قيام ذي القرنين -الذي كان يمثل العدالة والاستقامة في الأرض- بمساعدة العاجزين والمسحوقين. ويجوز أن هؤلاء المظلومين والعاجزين كانوا أتراكاً أو أمة مظلومة أخرى. وكان الظالمون والمفسدون هم قوم يأجوج ومأجوج. ولم يتردد ذو القرنين من الوقوف أمام هؤلاء المفسدين الطغاة أعداء الدين والعرض والملة. وسيتكرر التاريخ في هذا الخصوص وسيقوم مَنْ يرثون الأرض بإيقاف أمثال هؤلاء عند حدهم في كل عهد ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ

حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦). أي أن ذلك السد القوي المتين سينهار وسيقوم المفسدون الظالمون من ذرية هذا القوم الظالم بالانتشار في جميع السهول والبراري والبلدان.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

أي لا يوجد فرق بيننا من ناحية الخلق ومن زاوية النسبة إلى المعبود، وبتعبير آخر إلى الذات الإلهية من ناحية قربه وحكمه علينا، ومن زاوية بعدنا عنه وعبوديتنا له.

أجل!... ليس هناك موجود آخر غير الله سبحانه وتعالى لـــه من العلو والاستغناء بحيث ندين له بالعبودية، ولا يوجد أي مخلوق من الصغار والمهانة بحيث يقوم بالانحناء والتذلل أمام أي موجود آخر غير الله وبالتعبير الدقيق لبديع الزمان النورسي: "يتساوى ما ســـواه تعالى في البعد عن "المعبودية" وفي نسبة المخلوقية".[1]

وهذه الآية رد وجواب في الوقت نفسه على الغلو الذي حدث لأنبياء كرام مثل عيسى وعزير عليهما السلام حيث تم رفعهما إلى مقام الألوهية. ولا شك أن من الطبيعي أن يكون لإنسان -ولاسيما إن كان نبياً كريماً- قرب من الله تعالى ولكن هذا القرب لا يكون مبررا ولا مسوغا لرفع أي إنسان إلى مقام الألوهية. ومن أجل التنبيه على هذا الأمر الدقيق يقول الرسول ﷺ -على الرغم من كمالاته العديدة- "إنني بشر مثلكم". ولكن هناك فارق واحد بيني وبينكم وهو انه "يوحى إلي" ولكن إلهكم اله واحد. أي تم التأكيد على المساواة في العبودية أمام المعبود الواحد ضمن هذه الفروق. وهكذا نرى أن هذه الآية بجانب الرد على من قام بتأليه عيسى وعزير عليهما السلام فإنـــها تنبه المسلمين إلى الوضع الحقيقي لرسولنا الكريم ﷺ.

---

(١) اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثانية.

سورة مريم

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ [مريم: ٥]

ليس من الصحيح تفسير طلب زكريا عليه السلام ولداً من ربه وكأنه عدم رضا وكراهية للقدر الإلهي. لأنّ هناك أموراً مبنية على هذا الطلب. فزكريا عليه السلام أولاً نبي مرسل إلى بني إسرائيل. وكان بنو إسرائيل حتى ذلك اليوم يمثلون من قبل الأنبياء في أمور الدين والدنيا، ويكفي أن نتذكر سلوك وتصرف بني إسرائيل عندما اختير طالوت ملكاً وقائداً لهم[1]. لذا فقد خشي زكريا عليه السلام ألا يعترف بنو إسرائيل بالشخص الذي سيأتي من بعده ولا ينقادوا له، وهذا يعني انفراط عِقْدِ الوحدة بين بني إسرائيل.

ونستطيع أن ننظر إلى هذه الآية من زاوية أخرى:

إن الإنسان ممتحن بكل أمر دنيوي. ونستطيع إعطاء مثال النبي إبراهيم عليه السلام والنبي زكريا عليه السلام. فقد كانت للنبي إبراهيم عليه السلام رغبة مكبوتة في نفسه، وهذه الرغبة ظهرت واضحة من فرحه ببشرى الملائكة له بالولد. أما زكريا عليه السلام فقد دعا ربه دعوة واضحة وطلب منه العقب ويورد القرآن هذا الدعاء. وحسب الحكمة الإلهية فقد أُمتحن هذان النبيان بابنيهما. كأن الطلب الخفي كان أهون لذا امتحن النبي إبراهيم عليه السلام بطلب ذبح ابنه. أما زكريا عليه السلام فلأن طلبه كان ظاهراً فقد امتحن امتحاناً اشد -وإن كانت

(١) انظر: البقرة: ٢٤٧.

عاقبته خيراً- وهو ذبح زكريا وابنه يحيى عليهما السلام من قبل قومهما. وشدة الامتحان متناسبة مع درجة القرب من الله. وهذان النبيان كانا من المقربين، لذا كان امتحانهما شديدا كل الشدة.

وفي هذه الآية نرى دعاء زكريا عليه السلام وطلبه ذرية تخلفه لخشيته البقاء وحيداً دون معاون أو نصير من أهله في أمور الدين والدنيا. لذا نرى سورة آل عمران وهي تسجل دعاءه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨)

ويرد هذا الدعاء أيضاً في سورة الأنبياء: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِين﴾ (الأنبياء: ٨٩). أي طلب ذرية من صلبه يكون وارثاً له في النبوة وفي آل يعقوب.

ورسولنا الكريم ﷺ يقول: "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة".[1] أي أن الأنبياء لا يحملون أي هم من هموم الميراث لأولادهم أو لأقربائهم. لذا فالدعاء هنا من أجل ميراث النبوة. وقد قبل خير الوارثين هذا الدعاء واستجاب له بإحسان منه وفضل. وقد جعل الله تعالى -إظهاراً لعزته وعظمته- شيخاً كبيراً وامرأة عاقراً ستاراً لإحسانه وفضله.

ولكي يُشْعِرَ بأنه هو الوارث الحقيقي فقد استرجع بطريقة غير اعتيادية ما اعطاه بطريقة استثنائية وغير عادية.

---

(١) البخاري، الاعتصام ٤٥ مسلم، الجهاد ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٦.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧]

اعتزلت مريم عليها السلام عائلتها واعتكفت مكاناً شرقياً. ولم تكتف بالعزلة والاعتكاف، بل اتخذت ستراً وحجاباً بينها وبين عائلتها. وكما يمكن أن يكون سبب هذا الستر والحجاب تأمين عدم إحساس الآخرين بأحوال المرأة في هذا المكان المنعزل الصامت وحاجتها إلى التطهر، كذلك يجوز أن يكون السبب رغبتها في أداء عبادتـــها في جو هادئ وساكن بعيداً عن الضجيج لكي تستطيع التركيز في عبادتها وصلاتـــها.

ونتيجة هذا الطهر المادي والروحي الذي كانت تشعر به في أعماق روحها وحسب منطوق "الطيبات للطيبين" وفي ذلك الجو الطاهر النقي جاءها وتمثل لها الروح. كانت الإنسانية تحيا بـــهذا من جديد، وهذه الحياة المتجددة ستستمر حتى يوم القيامة.

ماذا كان هذا الروح؟ تقول معظم التفاسير بأن كلمة "روحنا" الواردة في هذه الآية تشير إلى جبريل عليه السلام. وهناك خلاف في تعيين المقصود من الروح. وحدود الاحتمالات تتجاوز إطار الخلاف، وهي واسعة إلى درجة أنـــها تستوعب روح رسولنا ﷺ أيضاً. أجل!... هذا محتمل أيضاً. لأن مريم العذراء عليها السلام كانت امرأة عفيفة جداً ونـــزيهة جداً. لذا لم يراود مخيلتها أيُّ خيال يمكن أن يقدح بـــهذه العفّة والنـــزاهة، وما كان يجوز لها ذلك. وما كان يجوز أن ينظر لها إلا محرم لها. وهذا المحرم هو نبينا ﷺ لأنه أشار في أحد أحاديثه أنه عقد نكاحه على مريم.[1] لذا كان ضمن

(١) كنـــز العمال لعلي المتقي ١١/ ٤٢٤.

الاحتمالات الواردة أن هذا الروح المتمثل لها كان روح نبينا. ولكن هذا ليس شيئاً قطعياً. وما لم تتقو الاحتمالات بالأدلة فهي تبقى مجرد احتمالات لا غير.

﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]

هناك بعض التعابير يستعملها كل إنسان -حسب تقييمه الخاص- في المسائل التي يراها خطيرة وكبيرة ومهمة جداً. فمثلا هناك دعاء لأبي بكر الصديق ﷺ -وإن كان ضعيفاً من حيث علم الحديث- يطلب فيه من الله تعالى أن يجعل جسمه ضخماً إلى درجة بحيث تمتلئ به جهنم فلا يبقى هناك مكان لغيره.

أو مثلما يقول بديع الزمان النورسي: "لو شاهدت سلامة إيمان أمتي، فإنني أرضى أن أحترق في نار جهنم لأنه بينما يحترق جسدي فإن قلبي سيمتلئ سعادة وحبوراً".(١)

مثل هذه المسائل تصبح عندهم فكراً وشعوراً. ولما كانت العفة لدى مريم عليها السلام قد أصبحت فكراً وشعوراً قويين فقد آلمتها الإشاعات والأقاويل التي قيلت في حقها ألماً كبيراً حتى تمنت لو أنها ماتت وأصبحت نسياً منسياً.

أجل!... لقد كانت مثالاً للعفة و لم تكن تستطيع تحمل أن يرميها أحد بزهرة فكيف وهي تتعرض للافتراء على شرفها وعفتها!!. لذا تمنت هذه الأمنية وهي في خضم الثواني الأولى من الهزة العنيفة التي جابـــهتها والتي لم تستطع آنذاك أن تستعين بمنطقها في تخفيف وقع هذه الهزة عليها، كما لو كان لقاء الله تعالى ضمن تلك الأمنية ونتيجة لها.

والحقيقة أن مثل هذه الأقوال كقول أبي بكر الصديق ﷺ وهو يشاهد طائراً على شجرة انه يتمنى لو كان هو مثل هذه الثمرة التي ينقرها هذا

---

(١) السيرة الذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

الطائر، وقول عمر بن الخطاب ﷺ وهو ينظر إلى قشة أخذها في يده أنه كان يتمنى أن يكون تلك القشة، وقول آخر بأنه كان يتمنى لو كان شجرة يقطعها الناس... هذه الأقوال ليست إلا أقوالاً قيلت في لحظات يشعر فيها قائلها أنه واقع تحت ضغوط هائلة لم يعد قادراً على تحملها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]

هؤلاء المؤمنون العاملون للصالحات سيكونون هم المحبوبين من قبل الإنس والجن والملائكة، حتى وإن لم يعملوا شيئاً من أجل كسب حب الناس لهم.

الفعل في اللغة العربية يفيد التجدد ويدل عليه و﴿آمَنُوا﴾ فعل. إذن فالمؤمنون بعد إيمانهم لا يعرفون الركود، بل يجددون أنفسهم وإيمانهم على الدوام بكشف جديد وفكر جديد وتأمل جديد، فيتوجهون على الدوام إلى آفاق جديدة ومتقدمة. ولا يكتفون بهذا بل ﴿وَعَمِلُوا﴾ أي يعملون ما يوافق إيمانهم هذا. أي يقضون أعمارهم في عمل الصالحات. إذن فهؤلاء الناس المؤمنون ثم العاملون ما يرضاه وما يريده ربهم منهم سيفوزون أولا بحب الله تعالى ثم بحب الناس، أي ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾. والحديث الآتي يوضح هذا الأمر إيضاحاً تاماً، حيث يقول الرسول ﷺ: "إذا أَحَبَّ اللهُ العَبدَ نادى جبريلَ إنّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأَحْبِبْه فَيحبُّه جبريل فيُنادي جبريل في أهل السماء إنّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه فيُحِبُّه أهلُ السماء ثمّ يُوضعُ له القَبولُ في الأرض".[1]

والحقيقة أن الحب يبدأ دائماً منه ثم يتدلى منه إلى السماء ثم إلى الأرض ويحيط بـــهما. ويكون هذا إما بخلق الله تعالى وسائل المحبة أولاً ويبنى عليها المحبة. أو يحبهم أولاً -لما سيكونون عليه في المستقبل- كأجرة عاجلة، ثم ييسر أمام قلوبهم الاتجاه نحو الخير ونحو الجمال ونحو الحسنات. وفي كلا

(١) البخاري، بدء الخلق ٦؛ الأدب ٤١؛ التوحيد ٣٣؛ مسلم، البر ١٥٧؛ الترمذي، تفسير سورة مريم (١٩).

الأمرين نرى أنّ الأساس هو النية الصالحة، وأن النبع الأساسي هو المودة الإلهية.

واليوم وإن كان الحديث عن مثل هذا الإنعام زعماً مشكوكاً فيه، إلا أن جنود الإيمان الذين يقدمون خدماتهم في العديد من بلدان العالم[1] يستحقون هذا الإنعام، وهو بالنسبة لهم عين الحقيقة. ولو تم تدقيق حسن القبول التي يتمتع بها جنود الخدمة هؤلاء في مختلف بلدان العالم لما شَكَّ أحدٌ في كوني محقاً في وصفهم. كيف لا وأنفاسهم تتردد من سهول آسيا الوسطى إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أوروبا إلى شمالي أفريقيا وإلى الباسفيك واستراليا. إن المستقبل كفيل بالحكم على هذه الخدمات التي يحققها هؤلاء الجنود من ناحية الكم ومن ناحية الكيف باسم امتنا ولصالح الإنسانية أيضاً. ولو قمت بتقويم أمرهم من ناحية إنتشارهم الجغرافي فقط لما ملكت نفسك من قول: "لولا أن الله تعالى ألقى محبة هؤلاء في قلوب أهالي تلك البلدان لما قبلوهم هذا القبول الحسن".

إن أصدقاءكم هؤلاء وفي هذا العهد العصيب المليء بالكوارث المتتابعة والمشاكل المتتالية تمسكوا بدينهم و لم يعلموا لهم غاية سوى خدمة هذا الدين ونظموا حياتهم وفقها. فهم عند قيامهم وقعودهم، وعند تنـــزههم وتحولهم أو عند أكلهم وشربهم يقولون: "يا رب!... كيف أستطيع نيل رضاك؟!" ويفكرون في هذا على الدوام. لذا فالعديد من أمثال هؤلاء بمستوياتهم ودرجاتهم المختلفة... برجالهم ونسائهم... بشبابهم وكهولهم وشيوخهم عندما اجتمعوا واتحدوا حول فكر واحد ونشاط واحد، أي حسب تعبير الآية الكريمة عندما آمنوا وعملوا الصالحات أنعم الله تعالى عليهم بحسن القبول في الدنيا. وشخصيا لا أستطيع سوى تقويم هذا التفسير حول وصول

---

(١) يقوم الذين استفادوا من محاضرات وكتب المؤلف بوظيفة التعليم والتثقيف والإرشاد في المدارس العديدة التي فتحوها في أكثر من مائتيَ بلد في العالم.. وإلى هذا يشير المؤلف. (المترجم)

هؤلاء إلى هذا المستوى من مستويات الخدمة الإيمانية في ظل كل هذه العوائق التي يحفل بها هذا العهد. وأقول والشعور بنعمة الله وفضله يحيط بقلبي وجوارحي: "كل هذه النعم منك وحدك يا إلهي!"... أقول هذا وأنحني بخشوع.

يقول الله تعالى في تكملة هذه الآية: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (مريم: ٩٧).

حيث يذكر تيسيراً تحف به الأسرار. ولو قمنا بتقويم المسألة ضمن سياقها وسباقها، نرى أن القرآن يتحدث عن أمر يتصف بالصعوبة... أجل!... إن التبشير صعب، والإنذار صعب، والأصعب منهما هو النفوذ إلى القلوب. وعندما تكون الشروط والظروف غير موافية وغير ملائمة، ويكون القادرون على الأمر والقائمون به قلة عند ذلك تبلغ الصعوبة درجة الاستحالة؛ لأن تحريك شيء راكد، وتحويل أمر سلبي إلى أمر إيجابي يحتاج إلى بذل طاقة كبيرة. فعند تحريك طائرة، يصبح التحريك الهدف الوحيد، وعند تشغيل السيارة تطفأ المصابيح والراديو والمسجل لتجنب أي ضياع للطاقة. ولكن بعد أن تطير الطائرة، وبعد أن تشتغل السيارة وتتحرك يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي ويتحرك كل شيء بانسيابية. وهكذا الأمر بالنسبة للخدمة الإيمانية -على اختلاف مدارسها ومفاهيمها- فمع أن المرحلة الأولى تتطلب جهوداً شاقّة، إلا أن الأمور ما أن تبدأ بالجريان في سياقها الطبيعي حتى تبدأ ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الدائرة الخيرة" -ضد "الدائرة المفرغة"- أي الدائرة الولودة هذا ما نشاهده الآن كل يوم في العديد من وجوه خدماتنا الإيمانية. وهو ما تذكره آية قرآنية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

أجل إن هذه الخدمات الإيمانية المقدمة اليوم، وأصحاب هذه الخدمات الذين نالوا شرف الدخول ضمن دائرة الرضا الإلهي من الأفراد والجماعات

والأمم والدول سيأخذون طبعاً نصيبهم من هذا التيسير، بل نالوه فعلاً. ولو دققنا التاريخ من هذه الزاوية لرأينا ألف دليل ودليل على هذا. فمن عهد الراشدين إلى الدولة الأموية والدولة العباسية ثم الدولة السلجوقية والدولة العثمانية، إلى هذا العهد الذي تبدو فيه بشائر البعث من جديد يمكننا رؤية أمثلة عديدة على أصحاب هذه الخدمة.

كما يمكننا النظر إلى هذا الموضوع من منطلق آخر، فالله تعالى يقول في سورة الليل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل: ٥-٧).

إذن فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى -نتيجة للفطرة السليمة التي يحملها المرء- كلها أمور ضمن الأعمال الصالحة، وكلها تؤدي إلى تيسير الأمور وتسهيلها. وهذا هو ما يعمله أصدقاؤنا الآن. فهم يعملون ليل نهار، وقد تركوا منازلهم وهاجروا إلى أواسط آسيا أو إلى مناطق أخرى في العالم غير آبهين بالضيق المادي، وحاضرين حتى للتضحية بالفيوضات المعنوية. فلا نبالغ إن قلنا بأن أمثال هؤلاء يكونون مظهراً للـ"ودّ" المذكور في الآية. لأن إيفاء حقّ الخدمات التي تصدوا لها وحملوها -على أحسن وجه ودون أي نقص- ليس شيئاً هيّناً. ولكني أظن أن أصدقاءنا هؤلاء قد عدوا ما يقومون به -والذي يبدو للغير أنه في غاية الصعوبة- جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، لذا تراهم مشغولين به ليل نهار، في قيامهم وقعودهم... في حركاتهم وفي سكناتهم. إذن فلتكن نفوسنا فداءً لصاحب الفضل والمنة الذي يسر لهم الصعب، وهوّن عليهم الشاق.

سورة طه

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ١٣]

إن اختيار موسى عليه السلام للنبوة في بني إسرائيل مرتبة مشرفة لا يمكن الوصول إليها من جهة، وامتحان من جهة أخرى. ونال هذا المنصب الرفيع السامي مكافأة مقدمة وأجرة عاجلة على عزمه القوي وشجاعته وإقدامه في المستقبل، وعلى شعور تام بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ولتواضعه وصدقه وإخلاصه ووقوفه بجانب الحق على الدوام مما خلد هذا الرأسمال الأخروي. فقد نشأ موسى عليه السلام في قصر فرعون كالأمراء تحوطه العناية والاهتمام ويلقى الاحترام والتبجيل.لذا فإن رجوع مثل هذا الشخص إلى الناس الذين كان فرعون يحتقرهم ويعدهم عبيدا له بل لا يتورع عن قتلهم بكل بساطة، ثم التمازج والائتلاف معهم ليس شيئا هينا على النفس أبدا، بل مشكلة كبيرة استطاع موسى عليه السلام تجاوزها، ووصل من هذه الزاوية الإنسانية -التي لم يستطعها أحد سوى أشخاص بعدد أصابع اليد الواحدة- إلى الذروة. وهذه الماهية والصورة الإنسانية التي كان يتمتع بها كانت ضمن أسباب الاختيار للنبوة "وأنا اخترتك" ومن بين أسباب المدح الإلهي له.

لم يكن هذا الاختيار من قبل بطانة القصر ولا من قبل بني إسرائيل، بل كان انتخاباً سماوياً من قبل الله تعالى، ليكون أهلاً للخطاب الإلهي وممثلاً له أولاً، ثم ليؤسس عالماً جديداً تحت رعاية عالم الغيب وإشرافه. ولهذا ذكرت الآية الكريمة ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾. فبجانب المدح واللطف الإلهي هناك توجيه وفتح باب لتشكيل أمة بناء على تلك الهمة الفردية العالية ومتناسبا معها.

في هذا الخطاب نرى أن الانتخاب والاختيار متداخل مع التنبيه للمسؤولية، ومع بشارة الاختيار نرى التذكير بالمسؤولية. وعندما يكون الكلام هو كلام الحق تعالى، والمخاطب هو النبي الكليم يكون من الطبيعي وصول العبارة إلى مثل هذا الظرف واللطف.

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤]

يبلغ الله تعالى نبيه هنا بأسلوب يليق بالنبي بأن الداعي إلى الله يجب أن يبلغ دعوته بأسلوب لين حتى ولو كان من يدعوه من الذين سدوا على قلوبهم سبل الهداية والإيمان من أمثال فرعون ونمرود وشدّاد. وهنا يوجد أيضا أمر مهم آخر وهو إن كان هذا القول اللين قد أصبح وصفا وسمة أصلية عند الداعي والمبلِّغ وممتزجا مع أفكاره ومشاعره تماما كان هذا سببا في زيادة تأثيره على الناس وعلى من يدعوه. ولو سلك مسلكا مغايرا لهذا فلا بد من حدوث العديد من المشاكل ومن حالات الفشل. أي إن لم يكن القول اللين ممتزجا في فطرة الداعي والمرشد وفي خلقه الأصيل، ولا يعيش هذا الخلق بشكل طبيعي فإن طبيعته الأصلية ستطفو على السطح -عاجلا كان أم آجلا- عندما يتعرض لأي إثارة، وعندئذ يخرب كل ما بناه من قبل، أي يتحول التعمير إلى تخريب. والذين يتعرضون لغضبه وحدته سيبتعدون عن الفكرة التي يمثلها وعن دعوته.

لذا فجعل القول اللين طبيعة وفطرة مهم جدا، ولن يتحقق هذا إلا بالحال اللين، والسلوك اللين والقلب اللين.

ولكن إن كان الموضوع هو "البغض في الله"، فأنتم حتى ولو شعرتم بالامتعاض نحو أحدهم عليكم أن توجهوا هذا الامتعاض نحو الصفات، على أن تحرصوا على اللين والرقة ولا سيما في أثناء وظيفة الدعوة. ولا تنسوا بأنكم عندما تقومون بدعوة شخص متمرد وقاسي القلب إلى الهداية تكسبون الأجر سواء اهتدى ذلك الشخص أم لم يهتد.

ثم إن الله تعالى يوصي هنا ويأمر بذهاب شخصين إلى فرعون، وهذا إشارة إلى أن بعض الأعمال تُنجز بشكل أفضل في حالة التعاون الجماعي ولا سيما عند مجلس من يدعي العظمة والكبرياء. فهذا يفيد في الإسناد المعنوي وفي معاونة أحدهما للآخر من جهة، ومن جهة أخرى تتم هنا عملية الإشهاد أيضاً. وهو مهم في التخلص من القلق والشعور بالوحدة الظاهرية أيضاً.

وتوصية النبي باستعمال الكلام اللّين -حتى مع كون الشخص المخاطَب متمرّدًا غاية التمرد- تنبيهٌ عليه بعدم تغيير هذا الأسلوب -المتوافق مع الفطرة ومع الطبيعة الخلقية له- لأسباب عارضة، ودعوةٌ بسلوك سبيل نـــزيه مع شخص لم يتعود على سماع الكلام الخشن أو الجارح لكي لا يدفعه هذا إلى النفور والبعد. وقد كان هذا الأسلوب اللين والخطاب اللين أوجب لموسى عليه السلام فهو قد نشأ وترعرع عندهم ولهم عليه فضل، لذا كان عليه -اعترافاً بفضلهم- خطابهم بكل رفق ورقة وهو يقوم بواجبه السماوي هذا ولا سيما وهو يريـــد تذكيرهم بالآخرة وبالحياة الأبدية. وربما كان استعمال هذا الأســـلوب الرقيق هو السبب في أن الآيـــة انتهت بـــ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤). فمع أن بعضهم كأفراد لا يرعوون ولا يهتدون، إلا أن هناك أملاً في هدايتهم على مستوى النوع.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه: ٥٨ - ٥٩]

كم من الأسرار والأنوار تشع إلى قلوبنا من هذه الآيات المتعلقة بسيدنا موسى عليه السلام كليم الله. فقد عاش أولا حادثة محفوفة بالأسرار في الطور. فقد شاهد هناك عصاه وهي تنقلب إلى حية تسعى، ويده وهي تصبح بيضاء للناظرين. فأصبح أفق اليقين الواقعي عنده متطابقا مع أفق اليقين الكامن عند هذا النبي العظيم الذي كانت ثقته ويقينه بربه كاملا. لقد أصبح يقينا كاملا بأنه مهما فعل سحرة فرعون فإنه سيغلبهم ويهزمهم. لذا كان ينظر بالفطنة الخاصة بالأنبياء إلى المسألة هكذا ويحلها بالشكل الآتي:

١– إن هذا الموضوع من القيام بإحقاق الحق وإبطال الباطل يجب ألا يتم خلف أبواب مغلقة، بل أمام كل الناس يحضره ويراه جميع أهالي مصر بسهولة مكانا سوى.

٢– يجب اختيار يوم عيد ومناسبة احتفال، لكي يستطيع جميع الناس الذين يكونون في عطلة آنذاك من حضور هذا المكان.

٣– وأنسب وقت لهذا التجمع هو وقت الضحى، ففيه يكون الجميع قد تخلصوا من حالة النعاس، ويكونون في نشاط ويقظة ويستطيعون إصدار حكم صحيح آنذاك.

وهكذا وفي وقت الضحى جاء المصريون أفواجاً إلى مكان اللقاء ليشاهدوا السباق الذي سيجري بين السحرة وبين موسى عليه السلام. كان السحر في ذلك

العهد مهنة محترمة ذات مستوى عال. لم يكن هؤلاء السحرة أناساً بسطاء أو عاديين. كانوا أشخاصا متصلين بالجن يأخذون منهم الأخبار، ويعرفون تحضير الأرواح ويجوز انهم كانوا يعرفون بعض المبادئ الأولية والبدائية للبراسايكولوجي. أي كانوا يعدون من الطبقة المثقفة في ذلك العهد. لذا فإن هزيمتهم أمام النبي موسى عليه السلام ثم إيمانهم به بعد ذلك كان يُعد آنذاك بمثابة انقلاب في معسكر الإيمان. وهذا هو ما حدث بالضبط. فالسحرة الذين أدركوا وأيقنوا تماما بأن ما جرى على يد موسى عليه السلام لم يكن من أعمال السحر أعلنوا إيمانهم أمام الملأ وأمام جميع الأنظار على الرغم من قيام فرعون بتهديدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وبعد إيمان العامة وجمهور الناس -عدا أناساً من المتعصبين- الذين شاهدوا إيمان السحرة بموسى وتسليمهم له، وانتشار الشك والتردد بين الباقين، كان المقصود قد حصل وتم. لقد انـــهدم الكفر الصراح والكفر البواح. لقد أصبح الناس في وضع يستطيعون الاختيار بين موسى عليه السلام وبين فرعون.

والشيء الأساسي الذي نريد الوقوف عنده في تحليلنا لهذه الآية هو موضوع المكان والزمان اللذين اختارهما موسى عليه السلام لهذا التحدي المهم. ويستطيع المسلمون اليوم استخلاص دروس وعبر مهمة من هذه الحادثة. فالمؤمن يجب ألا يقع في التشاؤم وهو يرى الإمكانيات المحدودة لديه. وعليه أن يستعمل ما أعطاه الله من فضل استعمالا حكيما وألا يستعمله دون حساب. أي يقوم بـــ"ضرب عصفورين بحجر واحد" كما يقال في المثل الدارج. أجل! على المسلم أن يخطط على الدوام ويبرمج كيف يضرب بحجر واحد مئات العصافير، مثلما نرى في العديد من الإجراءات الربانية. فكما نحصل من بذرة واحدة نبذرها في الحقل على سبع، أو سبعين أو سبعمائة من البذور، علينا أن نخطط في كل خدمة نريد تحقيقها في سبيل الإيمان وفي سبيل الملة للحصول على سبع، أو سبعين أو سبعمائة ضعف. وهذا هو ما فعله موسى عليه السلام. فحسب ثقته بالله وتوكله عليه، لم يشأ أن يفعل ما فعله

أمام أنظار فرعون وهامان فقط وخلف أبواب مغلقة، بل اختار مكاناً ووقتاً مناسبين وأمام أنظار الناس جميعاً. فاستطاع بذلك أن يسحب وراءه الآلاف، ومئات الآلاف.

وبينما يذكرنا القرآن الكريم بكل هذا، تقوم السنة النبوية بتعميق هذا الموضوع بمثال آخر،[1] فقد بين النبي ﷺ أنه أريد قتل غلام لم يدخل في دين أحد الملوك. ألقوه من فوق قمة جبل عال، فرجع إليهم ماشياً. أرادوا أن يغرقوه في اليم فتخلص من أمواج البحر العاتية ورجع إليهم سالماً. ومهما حاولوا قتله فلم يفلحوا وتخلص الغلام في كل مرة. وأخيراً "فقال الغلامُ للملكِ إنّك لا تقتُلني حتّى تصلبني وترميني وتقولَ إذا رميتني "بسمِ اللّهِ ربِّ هَذَا الغُلامِ". قال فأمَر به فصُلبَ ثُمّ رماهُ فقال "بسمِ اللهِ ربِّ هَذَا الغلام". قال فوضعَ الغلامُ يدهُ عَلَى صدغِه حين رُميَ ثُمّ ماتَ، فقال أناسٌ "لقدْ علمَ هذا الغلامُ علماً ما علمَهُ أحدٌ فإنَّا نؤمنُ بربِّ هَذَا الغلامِ". قال فقيلَ للملكِ "أجزعتَ أنْ خالفكَ ثلاثةٌ فهَذَا العالَمُ كُلُّهمْ قدْ خالفوكَ". قَالَ فخدَّ أخدوداً ثُمَّ ألقى فيهَا الحطبَ والنَّار ثُمَّ جمعَ الناسَ فقال "منْ رجَعَ عَن دينِه تركناهُ ومنْ لَمْ يرجعْ ألقيناهُ في هَذِهِ النَّارِ". فجعلَ يلقيهمْ في تلكَ الأخدودِ".[2] هذا هو المنطق الصحيح للإيمان، فهو سيموت لا محالة في نهاية المطاف، إذن فعندما يذهب إلى الطرف الآخر، عليه ألا يذهب بشكل رخيص ودون مقابل. هذا هو الموضوع. منطق العمل في سبيل الله حتى في الرمق الأخير وهو على أعتاب اللقاء بالله. فإن قمنا بتقييم الموضوع من هذه الزاوية، رأينا أن مثل هذا التفكير والتخطيط يسبق ويتجاوز حتى الرغبة في الشهادة –مع كونها مرتبة عالية–، أي أن الإنسان يستطيع إفادة ملته ووطنه ودينه بخدمات –في عمقها الأخروي أيضاً– قد تتجاوز مرتبة الشهادة نفسها. وعليه أن يفكر على الدوام في الطرق التي يستطيع فيها الحصول على مثل هذا

(١) مسلم، الزهد ٧٣.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، تفسير سورة ٧٦.

الكسب. ومثل هذا العمل قد يسبق الشهادة نفسها على ما أظن. أجل كان الغلام سينال مرتبة لو مات عند إلقائه من الجبل أو عند غرقه في البحر، ولكنه كان يكسب شيئاً واحداً فقط، كان يكسب مرتبة الشهادة في حياته الأخروية. أما في الشكل الآخر من الموت في سبيل الله وأمام أعين الناس بالكيفية التي شرحناها سابقاً فإنه أصبح وسيلة لإيمان مئات الناس.

لذا كان على الإنسان، ولا سيما المسلم أن يعرف قدر نفسه وكم هو مخلوق وكائن ثمين، وأن هذا الكون الهائل مخلوق من أجله، وأن كل شيء مسخر من أجله، لذا فعندما يرحل من هنا، عليه ألا يرحل بشكل رخيص، وأن يقول في نفسه: حسناً أنا راحل، ولكن هذه الدنيا التي أخلفها ورائي لابد وأن تصل من بعدي إلى الخط وإلى الأفق المتوافق مع سر الخلق، وعلى الموت أن ينقلب إلى مفتاح سحري بحيث عندما ينطفئ ضوء صغير يلتمع بدلا منه المئات بل الآلاف من الأضواء القوية.

سورة الأنبياء

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الأنبياء: ١٠]

يبين الله تعالى مخاطباً الأوائل الذين أنـــزل إليهم الكتاب، ثم الذين من بعدهم عن طريق الدلالة والإشارة إلى أنه أنـــزل إليهم كتابا فيه شرفهم ورفعتهم، ويذكرهم بهذا بصيغة تأكيدية ليوجههم إلى آفاق الشكر والحمد.

نستطيع ذكر ما يرد للخاطر من هذا الذكر:

١– التذكير بالوسائل الحقة وبالوسائل الصحيحة كالأوامر والنواهي المتوجهة لأهداف حقة. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

٢– قد يكون الذكر بمعنى الوعظ والنصيحة لأن "الدين النصيحة" كما جاء في الحديث الشريف الشامل الذي يشير إلى هذا الخصوص. والآية الكريمة في سورة الذاريات تؤيد هذا ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

٣– في غياب الأمم المحيطة بكم عن مسرح التاريخ بعد استكمال أعمارها الطبيعية واستهلاكها، فإنكم مرشحون –بفضل هذا الذكر النازل عليكم– للبقاء طوال التاريخ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾ (الرعد: ٤١). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧)

ففي هاتين الآيتين إيماءتان إلى هذا.

٤- وهذه الآية الكريمة تشير لمخاطبيها آنذاك بالوضع الذي سيتبوأونه في المستقبل وتقول إنكم ستشغلون في المستقبل موقعا مشرفا لن تستطيع أمة أخرى بلوغه؛ وإن هذا القرآن سيحفظ لسانكم ولغتكم من الضياع والسقوط، ويبقى مرجعا لكل من يريد فهم دينه. ونجد هذا المعنى في كلمة "ذكركم". وهي كلمة لا تفيد معنى الموعظة فحسب، بل تشمل أيضاً معنى بقاء ذكركم وعدم نسيانه، وعدم زواله.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

هذه الآية بخصوص النبي يونس عليه السلام. وحسب روايات عديدة فإن هذا النبي الكريم -بعد أن آمن قومه- رأى بعض آيات البلاء التي أهلكت كثيرا من الأمم السابقة وإشارات قدومها فترك بلدته قبل أن يتلقى أمرا واضحا من الله تعالى. ولأن هذا العمل يعد -بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى- من أمثاله هفوة فقد ألقى إلى البحر نتيجة قدر إلهي مخطط ومدبر، وابتلعه الحوت. وبعد أن انقطعت الأسباب كلها و لم يعد لها أي تأثير، توجه يونس عليه السلام بإدراكه النبوي إلى مسبب الأسباب كلها... توجه إليه وبدأ يدعوه ويسأله. والقرآن يخبرنا عنه فيقول ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾، لا شريك لك ولا شبيه، وكل ما يجري في العالم يجري بأمرك وبإذنك... لقد قذفت في البحر بإذنك، ولن يكون خلاصي إلا بإذنك وبأمرك وبمشيئتك ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والحقيقة أن كل نبي صدرت منه هفوة أو زلة سرعان ما كان يتوب أو يؤوب إلى الله ويستغفره. فهذا آدم عليه السلام يقول هو وزوجه: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣). وقال موسى عليه السلام متضرعاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (القصص: ٢٨).

ولا أعلم شيئاً في هذا الخصوص عن نبينا الكريم ﷺ. ولكن هناك دعاء علمه ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه استعمل فيه الكلمات نفسها: "اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً".[1]

(١) البخاري، الأذان ١٤٩؛ التوحيد ٩؛ الدعوات ١٦؛ مسلم، الذكر ٤٧-٤٨؛ حدود ٢٣؛ ابن ماجه، الدعاء ٢؛ الترمذي، الدعوات ٩٦؛ النسائي، السهو ٥٩.

إذا تناولنا هذه الآية مرة ثانية نراها تعلن عظمة الله ووحدانيته بكل قوة "لاَ إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ".

وبعد غياب الأسباب كلها وزوالها نرى أنّ يونس عليه السلام أيضًا ينبذ هذه الأسباب تماما، وهذا شئ مهم جداً. والحقيقة انه عندما لا تنفع الأسباب يتوجه كل إنسان –شاء أم أبى– إلى الله وحده وهذا هو المعنى الذي تشير إليه الآية ﴿سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

هنا يتركز الموضوع حول الاعتراف بعجز الإنسان وبظلمه، ثم التوجه إلى الله وطلب رحمته وشفقته. والحقيقة أن أفضل طريق لجلب رحمة الله ومغفرته هو اعتراف الإنسان بتقصيره، وهذا هو طريق الأنبياء العظام عليهم السلام.

وهنا أمر أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو كون جملة "لا اله إلا أنت" جملة مشيرة إلى مستقبلنا. أجل! فلو تناولنا الموضوع ضمن قاعدة "الانطباق مع مقتضى الحال"، فإن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع أن ينقذنا –سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع– من الظلام إلى النور وأن يوصلنا إلى شاطئ السلامة. ويكون هذا بشعار "لا إله إلا أنت" الذي يحتوي على جميع أنواع التوحيد.

ولكن يجب هنا الإشارة إلى أمر آخر. وهو أن النبي يونس عليه السلام نادى "لا اله إلا أنت" بسبب الظرف الخاص المحيط به. أما نحن فنقول "لا اله إلا الله" بدلا من "لا اله إلا أنت" بسبب الظروف المحيطة بنا.

ويحسن كذلك الإشارة إلى الأمور الآتية، وهي أن دعاء النبي يونس عليه السلام وتضرعه وقع وتحقق في جوف الليل فهناك ظلمات عديدة كما في آية ﴿اَللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وآية ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٧). فهناك عدة ظلمات هنا عند الابتعاد عن النور. ولكن الظلمة الأولى التي تعرض لها النبي يونس عليه السلام هي زلته التي

ضببت عالمه الداخلي، ثم كانت هناك الظلمة الحقيقية لليل وظلمة ووحشة بطن الحوت... أي ظلمات عديدة.

وقبل أن يتعرض النبي يونس عليه السلام لهذه المحنة كان -وهو النبي العارف بالله- عارفا بالتوحيد العميق التجريدي، وكان يعني بتضرعه "سبحانك". يا رب! إنني التجئ إليك وأنا مدرك ومعلن حق ألوهيتك وحكمتها ومقتضى هذه الحكمة، وأعلن عن عجزي وضعفي تجاهك.

أما قوله ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فليس سوى عد الأنبياء العظام للهفوات الصغيرة الصادرة منهم أموراً جساماً، وهو مثل قول: "هذه حالي وأنت أدرى بها". وهو مثل قول شاعر كبير:

حاجتي كبيرة وأنت أعلم بها

صمتي كلام ناطق وهو خطابي الحقيقي

لمثل هذا النبي المختار، ولمثل هذا التضرع المختار جاء الجواب من وراء السماوات: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ (الأنبياء: ٨٨).

اللّهم كما نجيته فنجنّا من الغمّ بحرمة من أرسلته رحمة للعالمين، وصلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]

إنّ ورود المشركين مع ما كانوا يعبدون من آلهة نارَ جهنم، ودخولهما معاً فيها، وتلاومهما هناك بإلقاء أحدهما اللوم على الآخر، تصويرٌ لعجز هذه الآلهة المزعومة وإنعدام قدرتها على النفع أو الضر كلٌّ هذا من التنبيه والتحذير من الوقوع في هذه العذابات الوجدانية العديدة المتداخلة إحداها بالأخرى، تأتي نذر هذه الآية.

وتعبير حصب جهنم -أي حطب جهنم- هنا إلى جانب كونه للإشارة إلى أن المعبودين من دون الله سيتحولون إلى مادة حارقة في جهنم يحترق فيها كل شيء إشارة إلى أن عبادة الأوثان والأصنام خطيئة لا يمكن أن تُغتفر، وأن هذه المعبودات تكون نفسها عين العذاب، وأنهم لا يستطيعون الخلاص من هذا العذاب المحيط بهم.

وكم هو أليم للإنسان -الذي جعله الله أشرف المخلوقات من ناحية الخلق الأولي وما جهزه من قابليات- أن يكون أصماً أبكماً أعمى وأن يشترك في العذاب مع معبودين عاجزين لا يملكون حولا ولا قوة.

ويستعمل فعل "وَرَدَ" في العربية بمعنى أتى وبلغ الماء. وهنا يرد إلى الخاطر صورة أشخاص بيدهم دلاء[1] الماء. واسم الفاعل لهذا الفعل هو "وارد". ولكن عندما نقارن هذا المعنى مع ما جاء في الآية نجد أن الآية لم تستعمل هذا الفعل بهذا المعنى. إذن فهنا نجد تهكما وسخرية. وهذا يشبه ما جاء في

(١) دلاء: جمع "دلو" وهو ما يستقى به. (المترجم)

آية ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).[1] أجل كان على هؤلاء أن يأتوا في الدنيا وبيدهم دلاء الماء ليستقوا من فيض الحقيقة المحمدية ومن منهلها العذب، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولم يستفيدوا من تلك الفرصة، فكانت خاتمتهم هذه الخاتمة الأليمة. ونفس المحتوى نجده في آية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١).

إن ذكر كلمة "وَرَدَ" هنا يشير إلى الفرصة الثمينة التي أضاعوها والتي قلبت الماء العذب إلى عذاب، وللتعبير عن مشاعر الحسرة والألم.

وقد تكون آية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ جواباً لمن يخطر على باله بأن نار جهنم لن تحرقه. فتقول هذه الآية بأنكم بالنسبة للنار التي ستحرقكم مثل حطب جهنم، فتعطي لهم درسا وعبرة وتضاعف من حسراتـــهم.

(١) لأن البشارة تكون في الأمور السارة والمفرحة. (المترجم)

سورة الحج

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١]

في القرآن الكريم هناك آيات عديدة في هذا الموضوع. أجل!... إن الله تعالى يمتحن المؤمن والمنافق والكافر على الدوام ليظهر الفروق الموجودة في عالمهم الداخلي. يمتحنهم بالمصائب والبلايا المختلفة وبالتجارب القلبية والوجدانية، بل حتى بالأمور المتعلقة بالخير، ويطلعهم على قيمهم الذاتية. من الثابت من تجارب عديدة بأن العديدين -حتى من المضحين في سبيل الله والمخلصين- تنتابهم أزمات مادية، وقد تبور تجارتهم، ويتعرضون إلى هزات مختلفة في حياتهم. وليس هذا سوى امتحان من قبل الله تعالى لذلك العبد. ولا يعني هذا أبدا أن الله تعالى وهو الغني المطلق سيتخلى عن الذين يحاولون بكل إخلاص وتضحية إعلاء كلمته ويتركهم وحدهم لينسحقوا في هذه الحياة. ولكن الله البارئ الذي له حكم عديدة في كل عمل يقوم به، والذي هو منزه عن العبث يجرب عبده ليظهر في سلوكه وأمام وجدانه مدى إخلاصه ومدى ارتباطه به. ويحتمل أن بعضهم سيخسر هذا الامتحان فيخسر هذه الدنيا ويخسر الآخرة كذلك. وهذا هو ما يطلق القرآن الكريم عليه وصف "الخسران المبين".

والذين يخسرون هذا الامتحان فيخسرون تبعا لذلك الدنيا والآخرة هم

المنافقون في الأكثر. فهؤلاء لم يستطيعوا الوصول إلى وحدة بين اللسان والقلب، أي لم يصلوا إلى الإيمان الكامل، فهم يلوكون بعض كلمات الإيمان بأفواههم، وينظرون إلى آيات الله من طرف أعينهم. لا يكونون موجودين في مركز الدين من ناحية العمل بل في أطرافه، يحاولون تمشية الأمور، بعيدون عن الاستفادة الحقة من جميع إيجابيات الإيمان. وفي بعض الأحيان عندما تبدو أن هناك مسؤوليات وأعباءَ أو أضراراً وخسائرَ تبدو في الأفق في الظاهر، نراهم وقد أخذوا جميعَ الاحتياطات والتدابير للابتعاد والهرب، لذا فهم يقفون على الدوام على هامش العمل الإيماني وفي زاوية منه وقد أخذوا أهبتهم واستعدوا للنكوص على الأعقاب.

وفي موقفهم الحذر هذا يخططون للاستفادة من كل شيء يحصل عليه المسلمون. وعندما يجدون ما يأملونه يتشبثون به ويعضون عليه بالنواجذ، ويظهرون في غاية الأمن والاطمئنان. أما إن كان هناك امتحان وابتلاء فسرعان ما ينقلبون على أعقابهم.

ليس كل المؤمنين يتحلون بجميع صفات المؤمن -ليتهم كانوا كذلك- فبعض المؤمنين يبقون تحت تأثير بعض صفات المنافقين. إذ قد يرغب هؤلاء أن تتجه الرياح حسبما يشتهون وأن تمطر السماء في الوقت الذي يحلو لهم، وأن يجري قدر هذا الكون حسب ما يهوون! وكما وجد أمثال هؤلاء في العهد الإسلامي الأول الحاملين لمثل هذه الآمال الصبيانية، والذين حولوا وجوههم عن الإسلام عندما لم يتحقق ما كانوا يشتهون، كذلك لا مفر من وجود أمثال هؤلاء حاليا، وهذا هو السبب في معظم الانحرافات الداخلية الحاصلة حاليا عندما تكون الأهواء موجودة في بعض النفوس.

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)

سورة النور

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

الله تعالى هو الذي أظهر الوجود للعيان، وأخرج الكون بوجهه الحالي إلى الوجود وجعله معرضا أمام الأبصار وكتابا يُقرأ، وهو الذي أعطى النور للأبصار والانشراح للقلوب. بدون نوره لا تبصر العيون، ولا تدرك البصائر، وتختلط الأوهام بالعلوم والفرضيات بالحقائق، وينقلب الوجود كله إلى فوضي لا معنى لها، فلا تحصل هناك فلسفة علوم في الأدمغة، ولا ضياء معرفة في الصدور.

لا يمكن التوصل من نقطة اللقاء بين الآفـــاق والأنفس من العلم إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى الإحساس العميق بالعبودية إلا بالله تعالى نـــور السماوات والأرض ونور من في السماوات والأرض، منور الأنوار.

بهذا النور يتحقق وجود الشمس أو الشموس في السماء، والألوان وصور الجمال على الأرض، وتنمو البصيرة والإدراك في القلوب، والمعرفة والمحبة والعشق والشوق، والتفكير والتحليل والمنطق في العقل وفي الدماغ. والذين يهتدون إلى الحقيقة عن طريق الاستدلال يهتدون بفضل هذا النور.

بفضل هذا النور يبصر الإنسان الألوان والتناسب بينها، والتناغم الموجود بين جميع الأشياء، ويدرك الشعر الموجود داخل هذا التناغم، ثم يحول هذا في قالب علم ومعرفة إلى القلب. وتقوم البصيرة بضم هذه العلوم الجزئية

معا، أو تقوم بإعادة تحليل وتركيب هذه المعلومات الكلية ليحولها إلى معرفة. إن الانتساب إلى الحق، والنظر إلى كل شيء بنور الله ومعرفته، يحول حقيقة الإنسان -الذي كان قطرة من ماء مهين- إلى بحر، ويحول معرفة الإنسان من ذرة إلى شمس، ويحول قلب الإنسان -الذي هو شيء لا يذكر- إلى نبض للكون. وفي مقابل عدم استطاعة الإنسان أن يحيط بأمسه وغده ببصره، بل حتى بكل أبعاد حاضره ويومه، يستطيع ببصيرته أن يدرك نفسه وكل الأشياء المحسوسة جزءً وكلاً. يدرك الأشياء ويدرك حقيقتها ودلالاتها وحقيقتها ثم حقيقة الحقائق وهو ربه تعالى بالإيماءات والإشارات الصادرة من قبله... يدركها ويحسها حسب درجة اليقين عنده، ويدخل في علاقة عبودية مع ربه.

والسبيل إلى تفادي الالتباس في هذا الإدراك العقلي، أو هذه المعرفة التي يمكن أن نطلق عليها اسم البصيرة الوجدانية هي القيام في أثناء السياحة بين الأدلة والإشارات والمؤشرين -علاوة على إلقاء نظرات جانبية على الوجود وعلى الحوادث- بالتوجه نحو منور الأنوار ومصور الأنوار، لكي تستطيع العلوم أن تنقلب إلى معارف، ولكي لا تلتبس على الإنسان مشاعره. والسبيل إلى التوجه والنظر إلى نور الأنوار هو النظر إلى القرآن الكريم الذي هو شمس الشموس ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُم﴾ (النساء: ١٧٤) وإلى مشكاة النبوة لسيد الأنبياء والرسل التي هي قمر أدمغتنا وشمس وجداننا ونظير الشمس والقمر في السماء ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (الفرقان: ٦١).

أجل!... إن لم نأخذ النور الإلهي بنظر الاعتبار تحول الكون وكل ما فيه إلى ظلام. أما إن أخذناه بنظر الاعتبار تنورت جميع الأشياء -المنظورة منها وغير المنظورة- وبدت بوجهها المشرق وبماهيتها الحقيقية.

والخلاصة أن كل شيء من نوره هو، ومن تجلي هذا النور تكون كل شيء نما وتطور... النور المطلق نوره وحده. وإسناد النور لغيره إما مجاز عند

الخواص، أو جهل من العوام. فإن لم يدرك الجميع هذا فبسبب ظهوره الشديد في الوجدان دون كيف أو كم، وبسبب تجليه الباهر. أجل!... كما يمكن أن يكون الغيب بابا مهما للعلم والإحاطة، كذلك يمكن أن يؤدي التجلي الباهر والشديد إلى منفذ للخفاء.

إن الله نور السماوات والأرض. وجميع الأشياء ليست سوى التجليات المختلفة للأمواج المختلفة من ذلك النور، وألبسها لباس الوجود الخارجي.

وأود كذلك جلب أنظاركم إلى بعض نواحي هذه الآية. بعضهم لا يميز الفرق بين النور وبين الضوء. ثم يقول إن سرعة الضوء معلومة فما هي سرعة النور؟. وأود هنا التأكيد على وجوب عدم الخلط بين النور وبين الضياء. فالله تعالى لا يقول بأنه ضياء السماوات والأرض. إذن فلفهم النور علينا الاقتراب من منبعه ومصدره، ومصدر النور هو الله. والله تعالى منـــزه عن الزمان والمكان. إذن يجب تقييم النور جزئيا من هذه الزاوية. يمكن أن يوجد النور والأشياء النورانية في اللحظة نفسها في مليون مكان، وأن ينتقل في لحظة سيالة من هنا إلى هناك. لذا استطاع رسولنا -الذي تحول جسده الطاهر إلى وضع استطاع فيه مرافقة روحه الذي تحول إلى حالة نورانية- إتمام معراجه في دقائق معدودة والقفول راجعا. بينما كانت هذه السفرة تحتاج في الظروف الاعتيادية إلى تريليون مضروب في تريليون من السنوات. بينما تخبرنا الروايات الصحيحة أن رسولنا ﷺ ذهب ثم رجع وكان فراشه لا يزال دافئا. أي كأنه تم هنا تجاوز الزمن في هذه السياحة.

ويجب ألا يفهم من كلامنا هذا بأننا نقول بأن النور المذكور في هذه الآية مخلوق. ولكي لا أدع مجالا لهذا الفهم الخاطئ استعملت كلمة: "كأن" عن قصد. أجل!... إن الأنوار الأخرى مخلوقة وخالقها هو الله تعالى منور الأنوار.

ونستطيع في هذا الضوء ذكر الحديث النبوي: "أول ما خلق الله

نوري"[1] أي أن النواة الأولى التي قذفت إلى رحم الوجود كانت النور المحمدي.

والخلاصة يجب ألا نخلط بين النور وبين الضوء. يجوز أن منبع الضوء هو النور، وأن الضوء هو تجلي النور في الدنيا، والنور يملك تجليات كثيرة من الثرى إلى الثريا.

اللهم يا منور النور، يا مصور النور، يا مقدر النور! نوّر قلوبنا وحواسنا بنور معرفتك، وأيدنا بروح من عندك. وصل اللهم على سيدنا محمد الذي جعلته قمراً منيراً وعلى آله وأصحابه الذين اقتدَوا به شبراً بشبر.

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١/٢٦٥-٢٦٦.

سورة الشعراء

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]

كان أصحاب موسى عليه السلام ينظرون إلى الموضوع من زاوية مادية، وعندما كان يخاطبهم، كان يأخذ هذا بنظر الاعتبار. أجل!... كانت النظرة المادية غالبة على هذه الجماعة، فعقولهم كانت محصورة في مجال ما يرونه ويشاهدونه فقط، ومقفولة عن العالم الميتافيزيقي. لذا فجماعة لها هذه الخواص والصفات كانت محتاجة لتعليم وتدريب وفي حاجة لجهد كبير لكي تستطيع تبني طريق النبوة في التفكير. لذا اختار موسى عليه السلام طوال حياته مثل هذا السبيل. فبذل غاية جهده دون كلل أو ملل. وهذه الآية الكريمة تبين هذه الخصيصة لليهود. ففي أثناء تعقب فرعون وجيشه لهم فرق أمامهم البحر بمعجزة باهرة ليقطعوا البحر بأمان. ولكن اليهود حتى في هذه الأثناء تناسوا هذه المعجزة الإلهية الباهرة فقالوا بأنـــهم مدركون، أي سيصل إليهم جيش فرعون، فقال لهم موسى عليه السلام الكلام الذي يجب أن يقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

يجري القاضي البيضاوي في تفسيره عند تحليل هذه الآية مقارنة بين موسى عليه السلام وبين محمد ﷺ، فيقول إن موسى عليه السلام قال في لحظة اقتراب الخطر ﴿إِنَّ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، أي عبر بصيغة المستقبل. بينما قال رسولنا محمد ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يطمئنه عندما كانا في الغار واقترب المشركون منهما: ﴿لاَ

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠). فأظهر الرسول الكريم ﷺ ثقته التي لا تعرف الحدود بالله تعالى.

لا شك أن الفرق بين خطاب موسى عليه السلام لقومه وبين خطاب رسولنا ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يعود جزء منه إلى الفرق في موضوع التوكل والتفويض والتسليم بين من خاطبهم موسى عليه السلام وبين من خاطبه رسولنا ﷺ. فلا شك في وجود فرق كبير بين شخص وصل إلى درجة الصديقين، فكان يقبل ويسلم بكل جملة تصدر من فم الرسول ﷺ دون أي تردد، وبين قوم كانوا يناقشون رسولهم ويجادلونه في كل أمر وفي كل شأن.

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٥]

كان إبراهيم عليه السلام شخصا يدرك تمام الإدراك النعم التي أسبغها عليه ربه وألطاف ربه اللانهائية. فمثل صاحب هذا الإدراك السامي كان يعلم أن كل شيء من الله تعالى، فهو الذي يطعم ويسقي ويعطي القدرة على الكلام. أي هو وحده الحاكم المطلق وليس غيره. وإذا كان صاحب مثل هذا الإدراك يدعو فيقول ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ فلا بد بأن الله تعالى هو الذي ألهمه مثل هذا الدعاء. أي كان الله هو لسانه الناطق، وهو الذي أنطقه بهذا الدعاء، ثم هو الذي قبل هذا الدعاء. ولو لم يكن يريد قبول هذا الدعاء لما ألهمه إياه. أجل!... نقول إنه قبل هذا الدعاء، والدليل على هذا أن المسلمين يذكرونه على الدوام ويدعون له في صلواتـــهم.

هنا أمر مهم آخر وهو: كما هو معلوم فإن الأنبياء عندما يتوفون لا يتركون وراءهم أموالا وأملاكا للورثة. دعوتهم هي ميراثهم. وكان إبراهيم عليه السلام الذي وصلت إليه سلسلة النبوة (والذي غير أشياء كثيرة في عهده، أي كان نبيا مجددا ومصلحا كبيرا) يرغب بهمته الكبيرة أن ينفتح على الإنسانية جمعاء. وقد تحققت أمنيته هذه كنتيجة طبيعية لقبول دعائه. أي تحول إبراهيم عليه السلام نتيجة عيشه حياة النفي مرتين مهمتين في حياته إلى ظل وارف للإنسانية. ففي الخط الذي بدأ بابنه اسحق عليه السلام وصل إلى المسيح عليه السلام، وفي الخط الذي بدأ بابنه إسماعيل عليه السلام وصل إلى نبينا محمد ﷺ. وكان في كلا الخطين قدوة وأسوة للجميع. وكان اسمه وذكراه على لسان كل نبي من هؤلاء الأنبياء. ومع أن رسولنا ﷺ كان خاتم الأنبياء والرسل، إلا أن ذكرى إبراهيم عليه السلام استمرت. وكما ذكرنا أعلاه فإن حب إبراهيم عليه السلام

الذي أشربت به قلوب المسلمين بتوجيه وتعليم من الرسـول ﷺ جعل المسلمين يذكرونه على الدوام في أدعيتهم في الصلاة. ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام سيكون من ورثة جنة النعيم نتيجة هذه الأدعية والصلوات.

وأمر أخير نود ذكره. إن المهمة التي يقوم الأنبياء بإنجازها، والدعوة التي يقومون بتبليغها ليست مجرد فكر أو مجرد هدف سام، أو مجرد غاية يسعون لتحقيقها. فهذه الأمور تبقى ثانوية جدا تجاه الدعوة العظيمة التي يمثلونها. والأنبياء الذين هم موظفون الهيون -ولا سيما إبراهيم عليه السلام- لم يكونوا يرغبون في انتهاء دعوتهم بوفاتهم، بل كانوا يدعون أن تعيش هذه الدعوة إلى الأبد. ومن هذا المنطلق يحتمل أن إبراهيم عليه السلام أراد أن تذكره الأجيال القادمة بالخير.

أما دعاؤه ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ فهو لكي يبين بأنه على الرغم من كونه وسيلة لأنبياء عظام ساروا على هذا الصراط المستقيم، وعلى الرغم من كونه مرشداً ودليلا لهذا الصراط المستقيم، فهو يطلب دعاء الأنبياء الذين جاءوا من صلبه ودعاء ورثة هؤلاء الأنبياء، لأنه يعلم وجوب انتظار كل شيء وكل الآمال من مسبب الأسباب، وأن الجنة لطف من الله تعالى وإنعام منه ولا تستحصل بالأعمال، بل بالرحمة الواسعة لله تعالى ونتيجة الطلب والدعاء المستمر. وهذا أمر مهم يجب التأكيد عليه.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢]

خطاب الأنبياء لأقوامهم الكفار بأنهم "إخوانهم" ليس مقتصرا على النبي صالح عليه السلام. فالخطاب نفسه يرد عند أنبياء آخرين مثل هود وشعيب ونوح ولوط عليهم السلام. فعلى الرغم من كون هؤلاء الأنبياء مرسلين من تلك القبائل وظاهرين من بينها،فهم لم يكونوا منهم من ناحية التفكير والشعور أو القرابة.

يحتمل أن مثل هذا التعبير في الخطاب كان من أجل إظهار عاطفة الشفقة التي تكنها هذه القبائل لهؤلاء الأنبياء الذين ظهروا من بينها، وإظهار الزاوية التي كان الأنبياء ينظرون منها إلى هؤلاء. وإلا لم يكن النبي صالح عليه السلام من هؤلاء الكفار لا من ناحية القرابة والدم ولا من ناحية الأخوة في الدين.

ولكنه كان من ناحية الإنسانية فردا منهم وكان من ناحية الشفقة عليهم كأنه أخ لهم. وكان قومه يعرفونه عن قرب ويعرفون أمانته وصدقه وعفته واتجاه تفكيره، فكانوا يعدونه فردا قريبا منهم، وكأخ لهم.

كان يمكن أن يخاطبهم بـــ: "الأب والوالد أو الخال أو الجد"، ولكن مثل هذا الخطاب قد يظهر نوعا من التعظيم لهم، كما لا يملك الدفء الذي يملكه خطاب "الأخ".

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾

[الشعراء: ٢١٩]

"تَقَلّبَ" من باب "تَفَعَّلَ"، وهذا يشير إلى تكلف شيء وبذل الجهد فيه. أي قيام الإنسان في أمر ما ببذل ما يستطيع وبالإصرار عليه. وهذه هي الصيغة التي يرسمها الله تعالى في وصف سجود رسوله الكريم ﷺ. أي أن الرسول ﷺ كان يبذل غاية ما في وسعه لإظهار عبوديته لربه وهو ساجد أي وهو أقرب ما يكون إليه، ويكاد أن يذوب في سجوده. ولكن هناك أمر تجب الإشارة إليه، وهو إن لم يكن هناك شعور قلبي غامر فلا يمكن الوصول إلى مثل هذه الذرى أبدًا. ومن لا يملك مثل هذا الشعور فتظاهره بالخشوع في السجود ليس إلا رياء.

أجل!... إن هذا الشعور القلبي وهذه المعنويات مهمة جدا ولا سيما في موضوع العبودية لله. فعلى المؤمن أن يتوجه إلى الله في كل أمر بكامل الزهد وبكامل التقوى وبكامل الإخلاص. وأن يكون هذا التوجه الغاية الوحيدة له، على ألا يفهم من هذا ترك الدنيا واعتزالها. فبينما يتم التوجه لتعمير الدنيا وجعلها جنّة من جانب، كذلك يجب توجيه القلوب إلى الحبّ الإلهي من جانب آخر حتى يجعل من نفحة الإيمان إكسيرًا للحياة. أي بينما تعمر الدنيا وتنظم، يتم التوجه إلى الله لنيل رضاه وفتح باب الوصول إليه على مصراعيه.

وأليس هذا هو ما يقوله القرآن الكريم عندما يذكر: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥). وأنا أرى أن هذه الآية مهمة جداً وذات معان عميقة في وصف الوضع العام للمؤمن الكامل، وفي عكس مقاييس علاقة المؤمن بالله تعالى وارتباطه به. يقول الفقهاء بأن الإنسان عندما لا يعرف

جهة القبلة يسأل ويستفسر عنها ويحاول بإمكانياته العثور عليها. وتكون صلاته مقبولة في هذه الحالة حتى وإن صلى إلى جهة معاكسة للقبلة. ولكن ليس من الصحيح قصر معنى الآية على هذا فقط. فالإنسان في جميع أحواله: عندما يأكل وعندما يشرب... عندما يقوم وعندما ينام ... عندما يكون بين أهله... عندما يتنـــزه... في كل أحواله هذه عليه أن يكون متوجها لله تعالى مراقبا إياه، شاعراً به. أجل!... إن الآية تشير إلى هذه المعاني أيضاً.

والحقيقة إن على الإنسان أن يجدد نفسه في كل حين في علاقاته بربه، وتظل نفسه طرية على الدوام. صحيح إن الله تعالى منـــزه عن التجدد والتغير والتبدل، ولكن شعورنا به وعلاقتنا معه يجب أن تتجدّد على الدوام. كان القدماء يقولون عنه تعالى "منظور إليه"، والتجديد المطلوب هو من ناحية الناظرين إليه. وهذا التجديد تجديد من ناحية البحث المستمر عن التجليات الجديدة لهذا "المعبود بالحق" و"المقصود بالاستحقاق"، والتعرف عليه من جديد للوصول إلى أعماق إيمانية أخرى. نحن مضطرون لهذا، وإلا فليس من البعيد تعرض إيماننا للتعفن وللبِلى.

إذا رجعنا للآية الكريمة نقول بأن السجود الخاشع المتبتل يتناسب طردياً مع مقدار الحضور الإلهي في القلب وفي الفؤاد. فقلب الإنسان اللاهي عن الله مع كونه غارقا في نعمه، والقلب الذي لا يحمل مثقال ذرة من الشعور بالامتنان والشكر والحمد، لا يستطيع الاقتراب من مثل هذا السجود مرة واحدة في حياته كلها، أو يكون هذا صعباً جداً.

ثم إن قيام الرسول ﷺ بأداء وظيفة العبودية بعمق نتيجة لعمق شعوره بمراقبة الله تعالى له في قيامه وقعوده وحركاته وسكناته "الذي يراك حين تقوم" أجل!... فهو مع كونه ساجدا بخشوع، ولكنه من ناحية أخرى يقوم بتنفيذ وتطبيق أوامر الحق تعالى، أي هو في حالة قيام روحي. فهو يقوم للتهجد نصف الليل. وهو قائم أيضاً لتنفيذ وتطبيق أوامر الدين بكل وجد

وبكل طاعة وتسليم. وهو يقوم لتلبية الحاجات المادية والمعنوية للمؤمنين بكل إنابة وخضوع لمولاه. أي كان يعيش العبودية لله في كل حركاته وسكناته منتظراً أوامره ومطبقاً إياها. وعندما يسجد ويضع جبهته في مستوى قدميه يكون قد ارتفع إلى ذروة العبودية فهو القائل: "أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ".[1]

(١) مسلم، الصلاة ٢١٥؛ النسائي، المواقيت ٣٥؛ الترمذي، الدعوات ١١٨.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

[الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]

من أهم خصائص آيات القرآن الكريم هي أن الأشخاص الذين تستهدفهم الآيات مباشرةً، والأشخاص الذين تخاطبهم بصورة غير مباشرة مع كونهم مختلفين إلا أن كلا منهما يستطيع استخراج الدروس والعبر التي تختلف بالنسبة لكل منهما. فمثلاً نرى أن شعراء الجاهلية هم المخاطبون المباشرون بـــهذه الآيات. وكان شعراء ذلك العهد الجاهلي يدعون أنهم يتصلون بالجن ويستطيعون الإخبار عن الغيب، ويتكلمون كلاماً سجعاً يسحرون به قلوب سامعيهم، أي كانوا يشبهون الوسطاء الروحيين في أيامنا هذه، وكانوا معروفين بمعارضتهم للقرآن. والقرآن عندما ذكر الشعراء في هذه الآية إنما كان يعني هؤلاء الشعراء الجاهليين. وأن وصف القرآن للتابعين لهؤلاء الشعراء والمتأثرين بهم بأنهم "غاوون" يشير إلى مدى انحراف هؤلاء الشعراء.

من جهة أخرى تخاطب هذه الآية بعض الشعراء في كل عهد وإن لم يكن بدرجة خطابه لشعراء العهد الجاهلي. فإن قومنا آية ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ضمن هذا الإطار نراها تشير إلى الذين أبعدوا الدين وكل ما يتعلق به عن حياتهم، واتخذوا أهواءهم أصناماً واتبعوا أمثال هؤلاء الشعراء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي أنـــهم يهملون المعنى والمحتوى والموضوع ويضعونه جانباً ويهيمون في الأودية المختلفة للنظم وللنثر تحت اسم وشعار الرومانسية مرة والواقعية مرة والفعلية مرة أخرى.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ أي أن الكذب ديدنهم، وهم كالصيادين الكذابين الذين يفتخرون بأنهم صيادون جيدون وهم كاذبون. لأنهم يقولون مالا يفعلون. قد يدعون الأدب ويدعون كتابة الروايات، ولكنهم يكذبون على الدوام.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. هؤلاء مؤمنون بجانب كونهم شعراء. لذا فالذين يتبعون هؤلاء يشاركونهم نفس الشعور ونفس الإيمان. ولكون هؤلاء قد اتخذوا الخط القرآني منهاجاً لحياتهم، لذا لا ينحرفون ولا يهيمون في كل واد. ولكونهم يعدون قول ما لم يفعلوه من اكبر الذنوب عند الله تعالى لا يكذبون أبداً، ولا يضحون بالقيم التي يؤمنون بها على مذبح الأدب أو الشعر أو الرواية، لسبب كونهم مؤمنين. أي يمثلون الأمن والأمان في الدنيا، ويوحون بالثقة على الدوام؛ لأن القول والعمل عندهم ضمن إطار واحد ولا تناقض بينهما. ولم يكن ينتظر شيء آخر من هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والذين إذا ما تعرضوا للظلم هم ينتصرون، ويستعملون حقهم في الدفاع عن أنفسهم.

وكما رأينا فإن من أهم شروط الاستفادة من القرآن قبوله رسالة عالمية لكل العصور، وقراءة كل إنسان له وكأنه يخاطبه. في هذه الحالة فقط يستطيع القرآن التعبير عن نفسه. ونستطيع نحن الاستفادة منه.

والخلاصة إن الشعر والنثر -كغيره من الأعمال ومن المهن الأخرى- يتجلى بشكل مختلف حسب اختلاف من يمثلونه. فبينما يقوم من آمن وعمل صالحاً بعكس أسس إيمانه في شعره ونثره ويهتف بالحق على الدوام، ولا يصرف قابلياته الفنية والأدبية في خيالات "فنطازية"، بل يستعملها

لإقامة الحق ومادة لبنائه، فقد ينتصر وقد يهزم ولكنه لا يتخلى أبداً عن مناصرة الحق. لقد كان الشعر والنثر والخطابة عند الخنساء وكعب بن زهير وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة –من الذين نصروا من قبل روح القدس– أداة مؤثرة، وسحراً حلالاً سحر الكثيرين واثر فيهم اكثر من تأثير السيوف القواطع. وبينما تكون صرخة مطلقة في سبيل الحق، أو مقالة تظهر الحقائق وسيلة من وسائل الانتصار للحق، يمكن أن يكون الشعر والنثر أداة لإلهاب الأهواء والنـــزوات. وأداة من أدوات الانحراف وتضليل الإنسان. فمثلاً قد يقوم يوماً أحد هؤلاء الأدباء بمدح الكرم، وفي اليوم الثاني يصفه بالتبذير، ومن يمدحه اليوم ويعلو به إلى السماء، يهاجمه غداً ويخسف به إلى تحت الأرض. تراهم مرة يصفون خيالاً باهتاً بأنه حقيقة باهرة أو تراهم يديرون ظهرهم للحقائق الساطعة ويصفونها بأنها مجموعة أوهام. عندما يتحدثون عن الجمال يثيرون الغرائز الجسدية، ولا يستطيعون رؤية الحسن المجرد. عندما يتحدثون عن الطبيعة يتحدثون عنها وكأنها خالق ومعبود. يتحدثون عن أمور لم تكن ولا يمكن أن تكون، ويستخدمون الأدب والفن وسيلة للكذب وللمبالغة وللديماغوغية. لذا فكل أحوالهم هذه ليست إلا أحوالاً شيطانية.